

سَبِيلُ النِّجَاةِ

الإِخْلَاصُ

الصَّبْرُ

الصَّدَقُ

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

قال الشيخ الإمام العارف : أبو سعيد أحمد بن عيسى البغدادي
الحرّاز قدّس الله روحه ، ونور ضريحه :

قلت لبعض العلماء : أخبرني عن الصّدق ، كيف هو ؟ ومامعناه ؟
وكيف العمل به ، حتى أعرفه ؟

فقال : الصّدق اسم للمعاني كلها ، وهو داخل فيها .
أنّحبّ أن أجيب عن مسألتك جواباً مختصراً أجمله أم أشرح لك
العلم والعمل بالأصول التي بها تقوم الفروع ؟
قلت : أريد الأمرين جميعاً ؛ ليكون ذلك علماً لي ، وفقهاً ،
ونصرة .

فقال : وفقت ، إن شاء الله !
اعلم : أنّه لا بدّ للمريد - المحقّق في إيمانه ، والمطالب لسلوك سبيل
النجاة - من معرفة ثلاثة أصول يعمل بها ، فبذلك يقوى إيمانه ، وتقوم
حقائقه ، وتثبت فروعه ، فتصفو ، عند ذلك ، الأعمال وتخلص ، إن
شاء الله :

فأولها الإخلاص :

لقول الله ، عز وجل : (فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا الله الدين الخالص)^(١) .

وقال تعالى : (فادعوا الله مخلصين له الدين)^(٢)

وقال محمد ﷺ : (قل : إني أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ)^(٣)

وقال : (قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي)^(٤)

وقال جل ذكره : (واذكر في الكتاب موسى ، إنه كان مخلصاً ،)^(٥)
وكان رسولاً نبياً .

ونحو هذا في القرآن كثير ، وفي هذا مقنع .

ثم الصدق :

لقول الله ، عز وجل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، اتَّقُوا اللَّهَ ، وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)^(٦)

وقال تعالى : (فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم)^(٧) .

(١) سورة الزمر : ٢ ، ٣ .

(٢) سورة غافر : ١٤ .

(٣) سورة الزمر : ١١ .

(٤) سورة الزمر : ١٤ .

(٥) سورة مريم : ٥١ وهذا على القراءة بكسر اللام .

(٦) سورة النوبة : ١١٩ .

(٧) سورة محمد عليه السلام : ٢١ .

وقال تعالى : (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) (١)
وقال تعالى : (واذكر في الكتاب إسماعيل ، إنه كان صادق
الوعد) (٢)

وقال : (ليسأل الصادقين عن صدقهم) (٣)

وقال تعالى : (والصادقين والصادقات) (٤)
وهذا كثير في القرآن .

ثم الصبر :

لقول الله عز وجل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا) (٥)

وقال تعالى : (وَلئن صبرتُمْ هُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ) (٦)

وقال تعالى : (واصبر وما صبرك إلا بالله) (٧) .

وقال تعالى : (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) (٨)

وقال تعالى : (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلًا) (٩)

(١) سورة الأحزاب : ٢٣ .

(٢) سورة مريم : ٥٤ .

(٣) سورة الأحزاب : ٨ .

(٤) سورة الأحزاب من الآية : ٣٥ .

(٥) سورة آل عمران : ٢٠٠ .

(٦) سورة النحل : ١٢٦ .

(٧) سورة النحل : ١٢٧ .

(٨) سورة الطور : ٤٨ .

(٩) سورة المزمل : ١٠ .

وقال تعالى : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي . يريدون وجهه) (١)

وقال تعالى : (واصبروا ، إن الله مع الصّابرين)

وقال تعالى : (وبشر الصّابرين) (٢) .

فجعل لهم الكرامة بالبشرى .

وهذا كثير مؤكد في القرآن .

* * *

وهذه ثلاثة (٣) أقسام لمعان مختلفة ، وهى داخلية فى جميع الأعمال .

ولانتم الأعمال إلا بها فإذا فارقت الأعمال فسدت ولم تتم .

ولانتم بعض هذه الأصول الثلاثة إلا ببعض ، فتنى فقد أحدها

تعطلت الآخر .

قال : فالإخلاص لانتم إلا بالصدق فيه ، والصبر عليه .

والصبر لانتم إلا بالصدق فيه ، والإخلاص فيه .

والصدق لانتم إلا بالصبر عليه ، والإخلاص فيه .

الإخلاص :

فأول الأعمال : هو الإخلاص .

(١) سورة الكهف : ٢٨ .

(٢) سورة البقرة من الآية : ١٥٥ .

(٣) الإخلاص ، والصدق ، والصبر .

فالفرض الواجب : أن تؤمن بالله ، وتعلم وتقرّ وتشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنه : الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، والخالق ، والبارئ ، والمصور ، والرزاق ، والحفي ، والمميت ، الذي إليه ترجع الأمور ، وأن محمداً عبده ، ورسوله ، جاء بالحق من عند الحق ، وأن النبيين حق ، وبالحق أدوا الرسالة ، وبالغوا^(١) في النصيحة ، وأن الجنة حق ، والبعث حق ، والمرد إلى الله تعالى ، يغفر لمن يشاء ، ويُعذب من يشاء .

ويكون ذلك عقدك^(٢) ظاهراً على لسانك ، بلا شك ولا ريب ، ساكناً^(٣) قلبك مطمئناً إلى ما صدقت به وأقررت .

وكذلك لا يعارضك - في كل ماجاء من عند الله على لسان نبيه ، ﷺ - شك في كل ما ذكره عن ربه ، عز وجل ، غير مخالف لما كان عليه النبي ، ﷺ^(٤) ، وأصحابه ، وأئمة الهدى ، الذي كانوا قدوة لمن جاء بعدهم من أهل الهداية ، ثم التابعون من بعدهم ، ثم علماء كل عصر ، متبعاً للجماعة ، مخلصاً في ذلك لله وحده ، لا تريد إلا الله تعالى ، ليتم إسلامك ، وإيمانك ، وتوحيدك .

(١) ترقوا فيها إلى أعلى نهاياتها .

(٢) اعتقادك .

(٣) ذهب مابه من شك .

(٤) وذلك قوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكوك في شجريهم ، ثم لا يجحدوا في أنفسهم حرباً مما قضيت ويسلموا تسليماً » .

وهو الذى أمر الله تعالى به حين يقول : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً)^(١)
 فمن شرح ذلك : أن يكون العبد يريد الله ، عز وجل ، بجميع أعماله وأفعاله ، وحركاته كلها ظاهرها وباطنها ، لا يريد بها إلا الله وحده ، قائماً بعقله وعلمه على نفسه وقلبه ، راعياً لهمه ، قاصداً إلى الله تعالى ، بجميع أمره ، لا يحب مدح أحد ولا ثناءه ، ولا يفرح بعمله - إذا اطلع عليه المخلوقون - فإن عارضه^(٢) من ذلك شيء اتقاه^(٣) بالسرعة والكراهية ، ولم يكن^(٤) إليه ، لكن إذا أتى عليه أحد ، حمد الله على ستره عليه^(٥) حين وفقه لخبر رآه العباد عليه .

نعم ثم يخاف عند ذلك ، من عمله الردىء ، وسريته القبيحة ، التى خفيت على الناس ولم تخف على الله ، فأشفق من ذلك ؛ وخاف أن تكون سريته أقبح من علانيته .

فهكذا يروى فى الحديث :

« السرية إذا كانت أقبح من العلانية فذلك الجور ، فإذا استوت

(١) سورة الكهف : ١١٠ .

(٢) ظهر له .

(٣) حفظ نفسه منها .

(٤) بركن ويطمئن .

(٥) ستره عليه : رعاية له بإظهار خيره وإخفاء شره .

السريّة والعلانية فذلك العدل . وإذا فضلت السريّة على العلانية
فذلك الفضل »

فالواجب على العبد أن يخفى عمله ^(١) جهده حتى لا يطلع عليه إلا
الله تعالى . فذلك أبلغ في رضا الله . عز وجل . وأعظم في مضاعفة
الثواب . وأقرب إلى السلامة . وأوهن لكيد العدو . وأبعد من
الآفات .

وروى عن سفيان الثوري ، رحمه الله ، أنه قال : « ما أعبأ بما
يظهر من عملي »

ويروى في الحديث :

« أن عمل السر يفضل على عمل العلانية سبعين ضعفاً » ^(٢) .

(١) قوله : أن يخفى عمله : أي الذي لم يطلب الشرع فيه الظهور . لأن الشعائر كلها
كالخج والعمرة والجماعة في الصلوات و . . إلخ . مطلوب فيها الظهور شرعاً .
وأما غير الشعائر : كالصدقات وعمل البرأيا كان . فالأمر فيه على ما يأتي : إن كان مرشداً .
أو قصد الخ على تعيين إظهاره ليؤدي المطلوب . كما كان في حديث : « من سن سنة حسنة فله
أجرها . وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة . ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها
إلى يوم القيامة » .

فإظهار الخير والبر بقصد الإرشاد المطلوب .

لكن محل ذلك إذا آثر من قلبه اتجاهاً إلى الله وحده . ولم يخش تهم الأمانة بالسوء .
وإليك ميزاناً لمعرفة ذلك الاتجاه وهو :

إن كان المرید أشد فرحاً وتلذذاً به في خلوته فعلة . وإلا فلا .

(٢) . ذلك للأعمال التي لم يطلب الشرع فيها الإظهار .

ويروى : «إن العبد ليعمل العمل في السر ، فيدّعه الشيطان
عشرين سنة ، ثم يدعوه إلى أن يظهره ، ويذكره ، فيُنقَل من ديوان
السر إلى ديوان العلانية ، فينقص من ثواب العمل وفضله ، ثم لا يزال
يذكره بذكره أعماله ، حتى يذكرها للناس ، ويتحلى (١) اطلاعهم
عليها ، ويسكن (٢) إلى ثنائهم فيصير رثاء (٣) .

فهذه الأمور : ضدّ الإخلاص ، وما ذكرنا : فهو من جملة
الإخلاص الذي لابد للمخلوقين من معرفته والعمل به ولا يسعهم
جهله ، وتبقى الزيادة في الإخلاص مع العبد إذا أحكم هذه الأصول .
قلت : ثم ماذا ؟

قال : مما يمكن أن يذكر أن يكون العبد لا يرجو إلا الله ، ولا يخاف
إلا الله ، ولا يترين إلا الله ، ولا تأخذه في الله لومة لائم ، ولا يبالي ،
إذا وافق الأمر الذي فيه محبة الله ورضاه ، من سخطه .
وما بقي من ذكر غاية الإخلاص أكثر ، وفي هذا بلاغ للمريدين
السالكين للطريق !

(١) يجد لذة في إطلاعهم عليها .

(٢) يرتاح ويركن .

(٣) رياء .

الصبر :

والصبر اسم لمعان ظاهرة وباطنة ، فأما الظاهرة فهي ثلاث :
فأولها : الصبر على أداء فرائض الله تعالى ، على كل حال ، في
الشدة والرخاء ، والعافية والبلاء ، طوعاً وكرهاً .

ثم الصبر الثاني : هو الصبر عن كل ما نهى الله تعالى عنه ، ومنع
النفس من كل مامالت إليه بهوها مما ليس لله تعالى ، فيه رضا ، طوعاً
وكرهاً .

وهذان صبران في موطنين : هما فرض على العباد أن يعملوا بهما .
ثم الصبر الثالث : هو الصبر على النوافل ، وأعمال البر ، مما يقرب
العبد إلى الله تعالى ، فيحمل نفسه على بلوغ الغاية منه للذي رجاه من
ثواب الله ، عز وجل .

وهكذا يروى ، أن النبي ﷺ فيما رواه عن ربه ، عز وجل قال :
« ماتقرب إلىَّ عبدي بمثل ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلىَّ
بالنوافل حتى أحبه » (١)

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى قال : من
عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه ،
وما يزال عبدي يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره
الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني أعطيته ، ولن
استعاضى لأعبدته » رواه البخاري .

والصبر الرابع : (١) هو الصبر على قبول الحق ممن جاءك به من الناس ، ودعائك إليه بالنصيحة ، فيقبل منه ، لأن الحق رسول من الله ، جل ذكره ، إلى العباد ، ولا يجوز لهم رده . فمن ترك قبول الحق ورده فإنما يرد على الله ، تعالى ، أمره !

وهذا ظاهر الصبر الواجب على الخلق الذى لا يسعهم جهله ، ولا بد لهم منه .

وبقى شرح حقائق الصبر وغاياته ، الذى يكون مع الصابرين بعد إحكام هذا الصبر الذى ذكرناه .

قلت : فالصبر فى نفسه ، ماهو وما موجوده فى القلب ؟
قال : الصبر هو احتمال مكروه النفس .

وموجوده : إذا وقع بالنفس ما تكرهه تجرّعت ذلك ، وأنفت الجزع ، وتركت البث والشكوى ، وكتمت ما نزل بها .

لأنه يروى فى الحديث : « من بث^(٢) فقد شكا »

ألم تسمع الله ، تعالى ، يقول : (والكاظمين^(٣) الغيظ والعافين

= وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل ، قال : « إذا تقرب العبد إلى شبرا تقربت إليه ذراعاً ، وإذا تقرب إلى ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإذا أتانى يمشى أتيت هرولة . » رواه البخارى .

(١) هو الصبر الباطن .

(٢) أذاع ونشر سبب الضيق الذى ألم به .

(٣) الذين يخفون غيظهم فلا يظهرهونه .

عن الناس (١)

أفلا ترى أنه كظم ما كره ، وشق على نفسه احتماله ، فصار صابراً ؟
فإذا أبدى الجزع وكافأ من أساء إليه (٢) ، ولم يعف عمن أساء إليه :
خرج من حد الصبر على هذا القياس .

قلت : فماذا يقوى الصابر على الصبر ، وبماذا يتم له ؟
قال : يروى في الحديث :

« إن الصبر عن المكاره ، من حسن اليقين » .

ويروى :

(إن الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله) (٣)

وذلك أن العبد لما آمن بالله تعالى ، وصدق قوله في الذي وعده
وتواعده ، قامت في قلبه الرغبة في ثواب الله تعالى ، الذي وعده ،
ولزمت قلبه الحشية من عقاب الله الذي تواعده ، وصحت عند ذلك
رغبته ، وقامت عزيمته في طلب النجاة مما يخافه ، وهاجت آماله في
الظفر بالذي يرجوه ، فجاء (٤) عند ذلك في الطلب والهرب ، فسكن
الخوف والرجاء قلبه ! فركب عند ذلك مطية الصبر ، وتجرع مرارته عند

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٣٤ .

(٢) قابل الإساءة بالإساءة .

(٣) أبو نعم في الحلية والبيهقي في الشعب .

(٤) اجتهد .

نزوله ، ومضى في إنفاذ العزائم ، وحذر من نقصها ، فوقع عليه اسم الصبر .

الصدق :

والصدق اسم لمعان كثيرة :

فأول الصدق هو صدق العبد في الإجابة ^(١) إلى الله تعالى ، بالتوبة النصوح .

لقول الله عز وجل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا) ^(٢) .
وقال تعالى : (وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) ^(٣) .
وقال تعالى : (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ) ^(٤) .

فأول التوبة هو الندم على ما كان من التفريط في أمر الله تعالى ، ونهيه ، والعزيمة على ترك العود في شيء مما يكره الله ، عز وجل ، ودوام الاستغفار ورد كل مظلمة للعباد من ملهم ؛ والاعتراف لله ، تعالى ولهم ، ولزوم الخوف والحزن والإشفاق ألا تكون مصححاً ؛ والخوف

(١) أُناب إلى الله تعالى : أقبل عليه وتاب .

(٢) سورة النحر : ٨ .

(٣) سورة النور : ٣١ .

(٤) سورة التوبة : ١١٧ .

ألا تقبل توبتك ^(١) ولا تأمن أن يكون قد رآك الله تعالى ، على بعض ما يكره ففقتك .

وهكذا يروى عن الحسن البصرى ، رضى الله عنه ، أنه قال :
ما يؤمِّننى أن يكون قد رآنى على بعض ما يكره ، فقال : إعمل ما شئت
فلا غفرت ؟

ويروى عنه أيضاً أنه قال : أخاف أن يطرحنى فى النار ولا يبالي .

(١) إن المؤلف - رضوان الله عليه - يحاول ما أمكن أن يوقظ الضمير الدينى فى قوة ، وأن يهز الشعور الروحى هزة تنبيه من غفلته . وكلامه متجه إلى من شاب توبته شىء من التردد . ولعل الواجب شرعاً : أن يوقن قبول الله لتوبته ، إذا تاب توبة نصوحاً بشروطها ، لأن فى توبة العبد : طلب الغفران من الله تعالى ، وقد جاء :

« ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة . » وجاء : عن الله تعالى :

« أنا عند ظن عبدي فى » أو كما قال .

والمؤمن لا يئس من روح الله ولا يقنط ، كما جاء فى الكتاب الكريم ، وجاء فى الأحاديث الصحيحة الكثير من فرح الله تعالى بتوبة العبد الذى جاء إلى الله بقراب الأرض ذنباً ، ولعل الأنسب أن يقال :

إن التوبة لطف من الله تعالى ، الذى أيقظ قلبه لتوبته . لأن المعصية تورثه القسوة ، فلم يعد يتذوق حلاوة الطاعة ومرارة المعصية ، فيستمر إلى أن يموت كافراً ولا يأمن الشيطان الذى يغريه بالمعصية أولاً ، وأن له أن يتوب ثانياً . وذلك دأب الشيطان مع بعض الصالحين : يزين لهم التوبة بعد المعصية ، وقد غفلوا عما ذكر من يقظة القلب قبل المعصية ، وغفلته بعدها .
نعم : عليه أن يذكر شبح المعصية ، وأنها تؤدى به ، لولا لطف الله الذى نبيه وألهمه التوبة ، وأنه لا يضمن ذلك بعد أية معصية ، فيستمر فى حذر من كيد الشيطان ، إنه عدو مضل مبين .

وبلغنى أن بعض العلماء لقي بعض الناس فقال له : تبت ؟

قال : نعم .

قال : قُلتَ ؟

قال : لا أدرى

قال : اذهب فادر .

وقال : « يفنى حزن كل ثكلى (١) وحزن التائب ما يفنى ! »

ومن صدق التوبة : ترك الأخدان والأصحاب الذين أعانوك على
تضييع أمر الله تعالى ، والهرب منهم ، وأن تتخذهم أعداء ، أو يرجعوا
إلى الله .

فهكذا قال الله عز وجل : (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا
الْمُتَّقِينَ) (٢)

ومن صدق التوبة : خروج المأثم من القلب ، والحذر من خفايا
التطلع إلى ذكر شيء مما أنبت (٣) إلى الله منه قال الله ، عز وجل :

(١) التى فقدت ابها .

(٢) سورة الزخرف . ومنه قوله تعالى :

(ويوم بعض الظالم على يديه يقول : يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً ، يا ويلتى ليتنى لم اتخذ
فلاناً خليلاً ، لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ، وكان الشيطان للإنسان خذولاً) وقوله تعالى
(ولا تتركوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) . .

(٣) رجعت : تبت .

(وذروا ظاهر الإثم وباطنه) (١)

واعلم أن المؤمن كلما صحَّح ، وكثر علمه بالله تعالى ، دقت عليه التوبة أبداً ، ألا ترى أن النبي ﷺ يقول : « إنه ليغان على قلبي ، فاستغفر الله وأتوب إليه كل يوم مائة مرة » ؟ (٢) |
فمن طهر قلبه من الآثام والأدناس ، وسكنه النور ، لم يخفَ عليه ما يدخل قلبه من خفي الآفة ، وما يلزمه من القسوة : من الهمة بالزلة قبل الفعل ، فيتوب عند ذلك .

(١) عقد القلب على المعصية - سورة الأنعام ١٢٠ .

(٢) رواه أحمد ومسلم وغيرهما . يغان على قلبي : يفتش عليه .